

مقدمة

يوم كانت المهمة تامة لم تنحت منها السنون بعد: كنتُ أجمع بعض إخواني الدعاة في جامعة بغداد، بعدد قليل دون العشرين كل أسبوعين، لنقوم الليل ونتلو القرآن، مع درس دعوى وموعظة مناسبة، ولأن الرقابة كانت هاجسنا: فإننا كنا نتجاوز المساجد الظاهرة العامرة إلى مسجد عتيق رطب عريض الجدران واطى الطاقات والأقواس، بالى الفراش، في زقاق ضيق قديم، يسمى «مسجد حسين باشا»، وهو الوالى العثماني الذي بناه قبل أربعمئة سنة تقريبا، ويبدو أن يد الصيانة لم تمتد إليه آنذاك، فكان التلف ظاهراً في أكثر أرجائه، والجص قد سقط من بعض حيطانه.

لكن أولئك المائة الرواد الذين كانوا يتناوبون الحضور أفواجا صدورا عن إجماع جازم أنهم لم يروا مكاناً تتجلى فيه البركة الربانية ظاهرة كمثل حرم ذاك المسجد، وكان أى مشارك يحس بروحانية عميقة تحت تلك الأقواس، ويشعر بشعور خاص إذ هو بين تلك الجدران الهرمة يفوق تأثير الموعظة، وبضاعف إخبات القلوب الذى يولده التهجد والتغنى بالآى، حتى إذا حَكَمَ وقت آذان الفجر: تصدى لرفع الأذان الحاج أحمد رحمته الله، مختار حى الحيدر خانة الذى يقع المسجد فيه، وكان رجلا ميسوراً لكنه يسكن غرفة في المسجد تطل على ساحة واسعة، فكان إجماع من إخواني أنهم لم يسمعوا أبداً أذاناً جميلاً أسراً مُطرباً كمثل أذانه، وكان عادل الشويخ يقول: يصح البيات في المسجد ثمناً لسماح ذلك الأذان، وأنا أشهد بما شهد به رحمته الله: أنى حتى الآن وأنا في الرابعة والستين ما أتلذذ بسماح نغمات أذان تدق أبواب القلب دقاً كنغماته، وآثار أذانه في نفوس أولئك الدعاة تعدل ما يرجعون به من آثار التلاوة والتهجد.

وتفسير هاتين الظاهرتين عندى — والله أعلم —: أن هذا المسجد العتيق قد بناه صاحبه بنية خالصة، ثم تتابعت أجيال كثيرة من المؤمنين تصلى فيه وتدعو، حباه الله تعالى ببركة خاصة ميّزته عن مساجد أخرى، ثم يبدو أن هذا المؤذن الذى هو ليس بأجير كان على شعبة من الإخلاص واقتراف الحسنات، فأودع الله ﷻ في صوته تلك العذوبة والقوة التأثيرية. وإنما أردت من سرد هذه القصة أن تكون مدخلاً لمعنيين مهمين يجب تقريرهما إذ نحن نبحث منهجية التربية الدعوية:

*** المعنى الأول:** أن الإخلاص وتام التجرد وعمق الانفعال مع القضية، والبراءة من

الأجر الدنيوي: عوامل رئيسة في تقوية أثر كلام الداعية في بقية إخوانه وفي الناس عموماً، وكلما كان الداعية أكثر اندماجاً مع موضوع كلامه، مفرغاً أرجاء قلبه كلها له: كان نفاذه إلى قلوب سامعيه أبعد، حتى لو لم يكن ظاهر الفصاحة، وحتى لو كان يدندن حول جمل تالدة قد حفظها الناس من قبل، فتكرار الأذان خمس مرات في اليوم من عدة مساجد لعشرات السنين تجعل أكثر المسلمين يستقبلونه إذا نودى به استقبالا عادياً وببرود ريباً، ولا يلتفت إلى معانيه العظيمة إلا قلة من المسلمين الذين عمرت قلوبهم بمعاني الإيمان والفقہ عمراناً واسعاً، ولكن إخلاص المختار الحاج أحمد وتزيّنه بالحسنات: جعل من كلمات أذانه دروساً كافية لوحدها، وبلاغاً لشباب جامعي يعيشون الزمن الصعب وسلبات التخليط والاختلاط، وعلى منهجية التربية الدعوية أن تُدرك مغزى هذه الظاهرة، وأن تعمل على إبقاء تعليم الإخلاص وأمثاله من المنازل الأولى في مدارج الصاعدين هدفاً دائماً ومصاحباً لجميع مراحل وجزئيات منهج التربية الدعوية، ليتبارك القول الدعوى مهما كان بسيطاً لم تجمله فنون البديع، وساكناً لم ينفذه تجديد.

*** والمعنى الثاني:** أن الدعوة القديمة الراسخة التي تعاقبت على القيام بأمرها أجيال عديدة من الدعاة: يُكوّن الله لها كيئناً معنوياً عاطفياً عميق التأثير في قلوب الدعاة والناس، فيه بركة تجعل القليل كثيراً، والواطيّ عالياً، والضيق واسعاً، والصلد ناطقاً، كمثّل مسجد حسين باشا هذا، وليس لمنهج التربية الدعوية فرصة تأثير كبيرة إن طُبّق في دار حديثة التشييد، جديدة الاسم والرجال والأعراف والتجارب، بل يلزم أن ينطلق تطبيق هذا المنهج المتكامل من بناء دعوى ضربت جذوره عمقاً، وجلس دعائه من قبل بين يدي جيل أكبر، فيتم التلقين وتحميل التبعة والأمانة والفهم، في توريث هادئ مستمر غير مشوب بقضاء قاضي، ولا صاحبه صخب نزاع الوارثين، فيكون اتصال السند والنسب، ومن يتجاوز من الدعاة الجدد فيظن أن التجديد الخططي يستلزم كيئناً جديداً مستقلاً فإنه يكون قد أبعد في الوهم، إذ سوف لا تلامس البركة كيانه الطارئ، ويحرمه من أنفاس المتعاقبين العطرة.

بومضات الفكر الاجتهادي تتطور منهجيتنا

وإذا عرفنا ذلك، وأوجدت تربيتنا بفضل الله تعالى الكتلة الإيمانية المستندة إلى الكيان العريق: فإن الطرف الثالث في إتقان الأمر وتطويره يكون هو الداعية الوارث للأمانة الذي أفلحت التربية في إنتاجه وتعليمه الوفاء، بأن يتصدى ويحمل همّ، ويكثر التفكير، ليكتشف مستلزمات الارتقاء والإيغال في الدرب.

حمل همّ التفكير هذا هو نقطة البداية الإبداعية.

وورد في شعر امرئ القيس وصف مجازي على عادة الشعراء لرجل:

«قليل هموم..... ما يبيت بأو حال»

أى ليس يخاف، وهمومه تكاد أن تنعدم، وجعل ذلك وصف مدح.

لكن لم يقل لنا أين مكان هذا في دائرة الحياة؟ وأين عنوانه؟

والأمر لا يعدو أن يكون مجازاً وخيالاً، أو يكون وصفاً لمتخلف عن صراع الحياة ترك

المعالي لغيره ورضى أن يُقاد.

أما حياتك وحياة كل حُرٍّ مصلح يريد أن يقود الحياة فكلها هموم ثقيلة، ومسئوليات،

ورغبة، وتأمل عميق في محركات الحياة.

نعم يصح الرجاء، وتبغى الرغبة، فإن الله تعالى وكيل المؤمنين، لكن من بعد أن تنهكك

الأوجال، وتعصرك الحاجات، وتذكك الأشواق.

تدخل الكير أولاً.. إذا أردت أن تستحيل ذهباً.

وقد قالت الحكماء: «اعلموا أن أقدامكم إن لم تتقدم بكم، فإن أيديكم لن تمكّ بكم»⁽¹⁾.

أى أن الشيء البعيد لن تتناوشه واقفاً مهما مددت يدك وأطلتها وحاولت، ولكن الراغب

الجاد: يتقدم ويقرب، فينال ويحوز ويقطف.

إلا أنه الخطو الواعي الذى يسبقه التأمل الهادئ المستعرض لمفاد التجارب، على طريقة

عبد الوهاب عزام فى نقد النفس حين تعجّب من الإنسان كيف يُشغل عن نفسه؟

«تتوالى الأيام وهو فى شغل من أعمال نافعة أو ضارة، جليلة أو حقيرة، لا يتلبث حيناً

ليسأل نفسه: فيم أنت؟ ولم نهجت هذا المنهج؟ ولم أثرت هذا العمل؟

والذى يدركه فى هذه الشواغل هو ما يخلص إلى عقله وقلبه من خلال هذه الضوضاء

المحيطة، والعجاج الثائر، لا يفرغ لتمحيصه، ولا هو مستوح له قلبه وعقله، فهو يسمع

ويقرأ، ذاهباً مع التيار، ويسير ويعمل ماضياً مع الركب.

وإذا خلا الإنسان إلى نفسه، ونفى عن سمعه وعينه حيناً ما يشغلها كل حين من

الأصوات والمرائى، وسمع قلبه فى سكون الليل وهدأة السحر: فعسى أن يفقه فى ساعة ما لا

(1) لطف التدابير للإسكافي / 4.

يفقه في أيام، بل يُدرك في لمحة ما لم يدرك في سنين، وعسى أن تنتزل عليه في هذه الخلوة من المعاني ما لم يخطر له، وما يحسب أنه بعيد عنه» (1).

وهذا الكتاب هو مجموعة خواطر وتأملات وردت إلى قلبي حين ابتعدت عن الضوضاء والعجاج لتمحيص ما هنالك من رصيد دعوى وذخيرة تجريبية وخلجات ضمائر فاه بها أصحابها خلال حوارى معهم في جلسات التربية والتعليم في أكثر من بلد، ولما رتبها ونظرت لها نظرة إجمالية شاملة: أيقنت أن الدعوة الإسلامية تملك حقائق تربوية كثيرة لم توظفها التوظيف الأمثل في منهجيتها التربوية، وأن التوظيف إذا تم بإذن الله فإنه سيدفع الدعوة إلى الأمام دفعة قوية، ويجعلها تحتكر الساحة.

إذن؛ فإن هذه الآراء التي أعتقد صوابها ليست هي «منهجية التربية الدعوية» الرسمية المعترف بها والمُقرّة قيادياً؛ وإنما هي مقترحات منى لتطويرها وتوسيعها وتجديدها، ويشفع لها أن الخيال فيها قليل، وربما ينحصر في رؤيتي لما في «الصناعة» من إحاء تربوى إيجابى، وأما معظمها فإنها قنوات غرستها المعاناة في قلوب الدعاة المربين، وتجارب ناجحة فعلية، لكنها محلية أو محدودة لم يكتب لها التعميم وتحتاج إلى إقرار جماعى لها لتكون ضمن المنهجية التربوية الدعوية، ثم الكثير مما تناولته إنما هو تعديل وتحليل لقضايا تربوية في المنهج تلقاها الدعاة تلقياً عُرفياً لم يصحبه شرح وتفهم، فبينت وجه الفقه الكامن فيها، ولم أبتدع أصلاً، إلا أن حرصى كان كبيراً خلال البحث كله على كشف الجانب المنهجى في المفردات التربوية التى تناولها الحديث، وبيان الخط الجامع الموحد لها في سياق ونسق منسجم، ويكفى أن يخرج الداعية المربى بمثل هذا الانطباع الكلى والنظر المنهجى الذى يتجاوز التجزئ ويرى مفاصل الارتباط بين المفردات التربوية لأقتنع بأن الكتاب قد حقق غايته.

وقبل عشرين سنة: خطب فينا فضيلة الأستاذ المرشد عمر التلمسانى رحمته، فجمع معانى حاسمة وموازين فاصلة في كلمات قليلة، فقال:

«اعلموا أننا إذا لم نحسن قضية المنهج فستُغتال الدعوة، ولا بد من منهج يعلم العلم الموروث عن أهل السنة والجماعة، والفكر الإخوانى هو ما يصدر عن الجماعة، وأما كتابات الكاتبتين فهى فكر إسلامى عام».

وأنا اليوم أكثر فهماً لكلامه هذا، وأعظم استيعاباً لمقصده، ولا بد من نخل كلام الدعاة

وإهدار النخالة، وكلامى وكلام الآخرين يجب أن يخضع لهذا الميزان وبصرامة، وإلا تكونت مدارس داخل الجماعة تخدش وحدتها الفكرية، إلا أنى أفهم أن فكر الجماعة يجب أن يتطور، والتطور لا يأتى من فراغ، وإنما تدفعه خلفية من الآراء عظيمة الكتلة يدلى بها أهل الفكر من دعاة الجماعة، ونمنحهم حرية فى التأمل والاقتراح والنقد، ثم تتولى عملية الانتقاء اختيار ما يمكن أن يضاف إلى فكر الجماعة ويكون الاعتراف به، وإنما يأتى هذا الكتاب فى سياق الإثراء الفكرى هذا وفى دائرة توسيع الخيارات، بل كل كتبى كذلك، والدرس المهم الذى ينبغى أن لا نغفل عنه فى أمر الفكر بخاصة: أن الاجتهاد ضرورة، والإبداع محرّك، وأن التقليد تراجع، والنمطية قيد، ولذلك يلزم تشجيع الدعاة على البوح بمكنوناتهم، وعلى الحوار، والبحث، والتأليف، ليعمر الفكر الاجتهادى، ووجود الفاصل الانتقائى الذى يصون الفكر الرسمى للجماعة عن أن يختلط به غيره هو الضمانة التى تمنع الخوف من رأى المرسل وتحوّله إلى مورد للتطوير وإلى مصدر لرؤية الأفق العريض.

وفى صورة الغلاف رمز لداعية متلون بمفردات التربية وخصال الأخلاق والمعرفة، بقى واقفاً شامخاً رغم الموانع، يرنو إلى الأمل فى زمن الظلام، وقد اتضح له الطريق. وتلك هى اللمسة الجمالية التى أصوغها لقضية منهجية التربية الدعوية. ثم لكل من يصاحبنى فى الإنصات لهذه النبضات العاطفية واصطياد الومضات العقلية سلام.

محمد أحمد الراشد